



المكتبة الأكاديمية  
شركة مسجلة  
المسجلة على شهادة الجودة  
**ISO 9002**  
Certificate No.: 82210  
03/05/2001

العقيدة

في حديث القرآن الكريم





# في حديث القرآن الكريم

فضيلة الشيخ

محمد الراوي



الناشر

المكتبة الأكاديمية

شركة محافظة مصرية

2008

## حقوق النشر

الطبعة الأولى ٢٠٠٨م - ١٤٢٩هـ

حقوق الطبع والنشر © جميع الحقوق محفوظة للناشر :

### المكتبة الأكاديمية

شركة مساهمة مصرية

رأس المال المصدر والمدفوع ١٨,٢٨٥,٠٠٠ جنيه مصري

١٢١ شارع التحرير - الدقى - الجيزة

القاهرة - جمهورية مصر العربية

تليفون: ٣٧٤٨٥٢٨٢ - ٣٣٣٦٨٢٨٨ (٢٠٢)

فاكس: ٣٧٤٩١٨٩٠ (٢٠٢)

لا يجوز استنساخ أى جزء من هذا الكتاب بأى طريقة  
كانت إلا بعد الحصول على تصريح كتابى من الناشر .

بِسْمِ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ.

وبعد، فلقد تضمن القرآن الكريم أصول العقيدة، ودعا المؤمنين إلى الإيمان بها، والعمل بمقتضاها، وحذر من الكفران والحدود بعد بيان وإعذار وإنذار.

قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ءَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ ءَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ءَالْيَوْمِ ءَالْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١﴾

ومن استحضر كيف نزل القرآن الكريم، وكيف حفظ، عرف للقرآن قدره، وأخلص لله قصده، وأحسن عمله.

﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿٣﴾

عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿٤﴾

(١) النساء: ١٣٦.

(٢) الشعراء: ١٩٢ - ١٩٤.

فَمَنْ نَزَّلَ الْقُرْآنَ؟ هُوَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ.

وَمَنْ نَزَلَ بِهِ؟ هُوَ الرُّوحُ الْأَمِينُ، جبريلُ العَلِيٌّ.

وَمَنْ نَزَلَ عَلَى قَلْبِهِ؟ هُوَ النَّبِيُّ الْأَمِيُّ مُحَمَّدٌ ﷺ.

وكفى أن يكون القرآن تنزيل رب العالمين ليكون بلاغاً  
ونذيراً للعالمين.

وأن يكون النازل به الروح الأمين، الذي كان ولياً لجميع  
المرسلين.

وأن يكون المتلقي له رسولاً من رب العالمين إلى الناس  
أجمعين؛ لِيُعْلَمَ أَنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ وَاحِدٌ، وَأَنَّ مَنْ نَزَلَ بِهِ هُوَ أَمِينُ اللَّهِ،  
الذي أمره ربه أن يتنزل بوحي منه إلى جميع المرسلين.

وما يتنزل إلا بأمره ﴿ وَمَا نَنْزَلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ

أَيْدِينَا وَمَا خَلَفْنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾ (١)

إن هذه الصلة بين من نزل القرآن، ومن نزل به، ومن نزل

(١) مريم: ٦٤.

عليه - والتي تُوحى بها كُلُّ آيةٍ من آيات القرآن - تُبَصِّرُ الْمُؤْمِنَ بعقيدته، وإيمانه بالله، وملائكته، ورُسُلِهِ.

وإنَّ الإعجازَ الذي يُعرَفُ به كيف حُفِظَ القرآنُ، وكيف تلقَّاه الرسولُ ﷺ - ولم يكن يدري ما الكتابُ ولا الإيمانُ، وما كان يتلو من قبله من كتاب، ولا يَحِطُّه يمينه - هذا الإعجازُ يُبْطِلُ به كُلُّ شكٍّ وارتيابٍ في أنَّ القرآنَ تنزِيلُ ربِّ العالمين.

﴿ وَمَا كُنْتُمْ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَحِطُّوا بِهِ مِنْ قَبْلِهِ ۗ ﴾

إِذَا لَازَتْكَ الْمُبْتَلُونَ ﴿١﴾

ومنذُ نزلَ الرُّوحُ الأمينُ بالقرآنِ الكريمِ على قلبِ الرسولِ ﷺ والقرآنُ يُرى أثرُهُ في خُلُقِ رسولِ اللهِ ﷺ، وفيمن استجابوا له، وعملوا به.

وقد عرفوا به حكمةَ خَلْقِهِم، وغايةَ وجودِهِم. فكانوا له مُتَّبِعِينَ، وبِهِدَاهِ - في كُلِّ شَأْنٍ من شئونِهِم - مُهْتَدِينَ، مُوقِنِينَ أَنَّهُ تنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

(١) العنكبوت: ٤٨.

وزادهم إيماناً ما يرونه في كُلِّ آيةٍ تُتلى عليهم، أمرَةٌ كانت أو ناهيةً.

وجبريلُ الطيّبُ، ينزّلُ بالقرآن في آيةٍ لحظةٍ من ليلٍ أو نهارٍ، أو سفرٍ أو حضرٍ.

والرسولُ ﷺ بينهم يتلو عليهم من القرآن ما ألقى عليه، طالت الآياتُ أو قصُرت.

فأيُّ إعجازٍ أتبين من ذلك وهم يرونَ الرسولَ ﷺ قد جمَعَ القرآنَ في صدره بتلاوةِ جبريلَ عليه، وجمَعَ اللهُ له؟!.

عن زيد بن ثابت رضي اللهُ عنه قال: «إِنِّي قَاعَدْتُ إِلَى جَنْبِ النَّبِيِّ ﷺ يَوْمًا، إِذْ أَوْحِيَ إِلَيْهِ. قَالَ: وَعَشِيَّتُهُ السَّكِينَةُ، وَوَقَعَ فَحْدُهُ عَلَيَّ فَحَدَيْتَنِي حِينَ عَشِيَّتُهُ السَّكِينَةُ. قَالَ زَيْدٌ: فَلَا وَاللَّهِ مَا وَجَدْتُ شَيْئًا قَطُّ أَثْقَلَ مِنِّي فَحَدَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، ثُمَّ سُرِّي عَنْهُ، فَقَالَ: اكْتُبْ يَا زَيْدُ» (١)

هكذا كان رسولُ الله ﷺ يتلقى الوحي، وكانت تلك شدته.

(١) أحمد: مسند الأنصار رضي الله عنهم، حديث زيد بن ثابت عن رسول الله ﷺ رقم ٢٠٦٧٧.

قالت عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا وهي تَصِفُ حَالَ الرَّسُولِ ﷺ حِينَ يَنْزِلُ عَلَيْهِ الْوَحْيُ: « وَلَقَدْ رَأَيْتُهُ يُنزَلُ عَلَيْهِ الْوَحْيُ فِي الْيَوْمِ الشَّدِيدِ الْبُرْدِ، فَيَقْصِمُ عَنْهُ <sup>(١)</sup> وَإِنْ جَبِينَهُ لَيَنْفِصُدُ <sup>(٢)</sup> عَرَقًا <sup>(٣)</sup> »

من الذي أقرأه وجمع له القرآن في صدره ؟

وقد كان ﷺ يبادرُ جبريلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فيقرأُ قبل أن يفرغ من الوحي؛ حرصاً على الوحي، وشفقةً على القرآن مخافة النسيان! فنهاه الله عن ذلك، وأنزل قوله: ﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ ۗ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ <sup>(٤)</sup>

إنَّ الله تعالى قد تكفلَ لنبِيِّهِ ﷺ أن يجمع له القرآن في صدره، وأن يُيسره لأدائه على الوجه الذي ألقاه إليه، وأن يُبينه له ويُفسره ويُوضِّحه، وقد كان ﷺ يبادرُ إلى أخذه، ويُسبقُ المَلَكُ في قراءته،

(١) أي: يقلع ويتجلى.

(٢) مأخوذ من القصد وهو قطع العرق لإسالة الدم. شبه جبينه بالعرق المقصود مبالغة في كثرة العرق.

(٣) البخاري: كتاب بدء الوحي، رقم ٢.

(٤) طه: من الآية ١١٤.

فأمره الله ﷻ إذا جاءه الملكُ بالوحي أن يستمع له.

وذاك ما كان منه ﷺ. فكان إذا أتاه جبريلُ التليلاً أطرَقَ،

فإذا ذهبَ جبريلُ قرأه كما وعده الله ﷻ، حيث قال:

﴿ لَا تَحْرُكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَتَّعَجَلَ بِهِ ۗ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ۗ

﴿ فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ۗ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ۗ ﴾ (١)

إنَّه القرآنُ، وإنما العقيدة تُرى أصولها ودلائلها في كلِّ آيةٍ من آيات القرآن الكريم، وأنت تستحضرُ الصلَّةَ بين مَنْ نَزَلَ القرآنَ، وَمَنْ نَزَلَ بِهِ، وَمَنْ نَزَلَ عَلَيْهِ.

الإيمانُ بالله وملائكته ورُسُله، وما جاءوا به من عندِ الله، عقيدةٌ راسخةٌ في قلوبِ المؤمنين، تُسْتَحْضَرُ وهم يقرأون القرآنَ، أو يستمعون إليه، وَيَرَوْنَ أَنَّ كُلَّ آيَةٍ تُتْلَى عَلَيْهِمْ قد مرَّتْ بقلبِ رسولِ الله ﷻ وهو يتلقى القرآنَ من لدنِ حكيمٍ خبيرٍ.

وجبريلُ التليلاً يُقرئه فيتَّبِعُ قراءته في كلِّ كلمةٍ من كلمات القرآن، فلا يغيبُ عنهم حضورُ جبريلِ ووجوده، كما لا يغيبُ عنهم

حضورُ الرسول ﷺ في كُلِّ آيةٍ من آيات القرآن، وقد مرَّت بقلبه قبل انتقالها إليهم.

إنَّ هذا الاستحضار لازمٌ لمن أراد أن يتدبَّر القرآن، وأن يعمل به؛ حتى يكون مُتَّبِعاً في جميع أمره، غيرَ مبتدِعٍ في عملٍ أو اعتقاد، وهو يعرف للقرآن شأنه، ويعرفُ للرسول ﷺ قَدْرَه، فيراه شرفاً له يستمسكُ به، ولا يخيِّدُ عنه.

عملاً بقول ربِّه: ﴿ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُنْفَلُونَ ﴿١﴾

وَمَنْ صَاحَبَ الْقُرْآنَ وَعَمِلَ بِهِ وَجَدَهُ - فِي كُلِّ شَأْنٍ - تَبَصُّرَةً وَتَذَكُّرَةً وَهَدَايَةً لِتِي هِيَ أَقْوَمُ. وَكَانَ لَهُ حَيَاةٌ وَنُورٌ يُسَدِّدُ بِهِ إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقِ مُسْتَقِيمٍ.

ومنهجُ القرآن في تذكرة الإنسان وتبصرته فِطْرِيٌّ، لا عُسْرَ فيه ولا تكلف، ذلك أنَّ القرآن يُخاطِبُ الإنسان - وهو يقرأ القرآن - بآياتِ الله في نفسه، وفي الكون من حوله، وهي قائمةٌ بالإنسان حيث كان، في

سُكُونِ لَيْلٍ، أَوْ تَنْفُسِ صَبْحٍ. فِي حَضْرٍ أَوْ سَفَرٍ، فِي يُسْرِ أَوْ عُسْرِ، وَشِدَّةٍ أَوْ رَخَاءٍ.. فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ تَرَى مَا يَخَاطِبُكَ بِهِ الْقُرْآنُ.

والقرآن - وهو يهديك إلى ربك - يأخذك في رحلة يُريك فيها من صنْعِ ربك، ويُصْرِّك بآياته؛ حتى تؤوبَ إليه دائماً وتُتِيب، وتعبده وأنت تخشاه وترجوه.

فحديثُ القرآن عن الكون وعن كُلِّ شيءٍ يُتَعَبَّدُ به لفظاً، كما يُتَعَبَّدُ - في واقعٍ - معنًى، فأنت تتلوه في محرابِ الصلاة خاشعاً، وتراه في واقعِ الحياة بيناً ساطعاً.

تقرأ في الصلاة قوله تعالى: ﴿ءَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ﴿١٧﴾ رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّلَهَا ﴿١٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴿١٩﴾ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴿٢٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴿٢١﴾ وَالْجِبَالَ أَرْسَنَهَا ﴿٢٢﴾ مَتَّعًا لَكُمْ وَلَأَنْتُمْ كَرِيمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ (١)

وتخرجُ من محرابِ الصلاة إلى ساحةِ الحياة وأنت تفكرُ في نفسك، وفي السماء، وفي الليل والنهار، وفي الأرض ومائها

(١) النزاعات: ٢٧ - ٣٣.

ومَرَغَاهَا، وَفِي الْجِبَالِ وَمَنْ أَرَسَاهَا...

تَرَى هَذِهِ الْأُمُورَ مَائِلَةً أَمَامَ عَيْنِكَ، تُعْلِنُ عَنْ صِدْقِ الْوَحْيِ فِي صَمْتٍ، وَتَدِينُ لِلخَالِقِ الْعَظِيمِ فِي خُشُوعٍ، فَيَتَسَعُّ مَحْرَابُ الْعِبَادَةِ، وَيَتَحَوَّلُ الْكُونُ كُلُّهُ إِلَى مَحْرَابٍ خَاشِعٍ، فِيهِ تَسْبِيحٌ وَتَحْمِيدٌ وَتَنْزِيَةٌ. فَإِذَا مَا فَكَّرْتَ فِي أَمْرِ السَّمَاءِ، جَاءَكَ الْقُرْآنُ بِالْقَوْلِ الْفَصْلِ.

﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ (١)

وَإِذَا فَكَّرْتَ فِي شَأْنِ الْأَرْضِ وَمَا قَامَ فِيهَا، جَاءَكَ الْقُرْآنُ بِالْيَقِينِ أَنَّهَا مِنْ صُنْعِ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

﴿ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ ﴾ (٢)

ثُمَّ يَأْتِيكَ تَبْوُهُمَا بِالْحَقِّ فِي آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ، لَا تَجْعَلُ انْتِفَاعَكَ بِالْكَوْنِ انْتِفَاعًا آلِيًّا وَإِفَادَتَكَ بِمَا تَجُودُ بِهِ السَّمَاءُ وَمَا تُخْرِجُهُ الْأَرْضُ إِفَادَةً حَيْرَانٍ يَتَنَاوَلُ مَا يَأْتِيهِ، وَلَا يُفَكِّرُ مِنْ أَيْنَ؟ وَكَيْفَ؟ وَلِمَ يَأْتِيهِ؟

وَمِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ بِالْإِنْسَانِ أَنْ جَعَلَهُ يَقْرَأُ كِتَابَهُ الْمُنَزَّلَ فِي صَفْحَةٍ

(١) الذاريات: ٤٧.

(٢) الذاريات: ٤٨.

الكون منقوشاً ومنتوراً، وصفحة الوحي مقروءاً ومسطوراً ومحفوظاً.

وعناية القرآن بالكون هي عنايته بالإنسان نفسه؛ إذ هو المقصود، وهو المخاطب بآيات الله في الكون الذي ألقته أرضه، وأطلته سماؤه، وغداه نباته، ورواه ماؤه، وأمدته شمسُه وهوأده، وآواه ليله، وعائشه نمازه. وقد استقبله في حياته، وضمه في مماته.

﴿الَّذِي جَعَلَ الْأَرْضَ كِفَاءً ﴿٢٦﴾ أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا ﴿٢٧﴾﴾ (١)

ومن تدبّر هذا عرف لماذا حضّ القرآن الكريم على التفكّر في خلق السماوات والأرض، وسار بالإنسان في أودية الكون المختلفة، وحقائقه المتباعدة.

ويأتيه البيان حين يتدبّر القرآن؛ ليعرف من أين؟ وكيف؟ ولم؟

يأتيه البيان وهو يقرأ قول ربّه: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ لَيْلًا لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ لَا

(١) المرسلات: ٢٥، ٢٦.

إِلَهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَإِنِّي تُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِقَايَتِ اللَّهِ  
 يَجْحَدُونَ ﴿٦٢﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً  
 وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ۚ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ ۗ  
 فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٣﴾ هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ  
 مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ۗ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٤﴾ (١)

هكذا يُرِينَا القرآنُ بنوره آياتِ الله في أنفسنا وفي الآفاقِ من  
 حولنا، فُعِينَا بهدأيته على القيامِ بحكمةِ خَلْقنا، وغايةِ وجودنا.

يُعِينَا على عبادةِ الله وحده، وعدمِ الإِشْرَاقِ به، وهو يَشِيرُ  
 إِشْرَاقًا بَعْدَ وَتَعْظِيمٍ لِمَا قَادَنَا إِلَيْهِ مِنْ آيَاتٍ، وَمَا أَرَانَا مِنْ بَيِّنَاتٍ.

﴿ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَلِقُ كُلِّ شَيْءٍ ۗ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَإِنِّي  
 تُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ (٢)

﴿ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ ۗ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَلِقُ كُلِّ شَيْءٍ ۗ

(١) غافر: ٦١ - ٦٥.

(٢) غافر: ٦٢.

فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾ (١)

مشهدٌ كوني واسع، تطيبُ به النفس، ويخضع القلبُ.

والقرآنُ الكريمُ مع بيانه لحكمةِ خَلْقِ الإنسانِ وغايةِ وجودِهِ

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿١٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ

مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُونِ ﴿١٧﴾ ﴾ (٢)

قد حدّد حقيقةَ العبادة، وهَدَى إليها، وبصَّرَ بها، وأرسلَ من

أجلِها رسولاً يُقتدى به، ويُهتدى بهُداه ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ

أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾ (٣)

وأمرَ سبحانه أن يُطاعَ هذا الرسولَ ولا يُعصى.

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ (٤)

(١) الأنعام: ١٠٢.

(٢) الذاريات: ٥٦، ٥٧.

(٣) الأحزاب: ٢١.

(٤) النساء: من الآية ٦٤.

وقد حُفِظَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمَ، وَحُفِظَ بِيَأْهُ؛ لِيَقِيَ الْقُرْآنُ، وَتَبْقَى  
السُّنَّةُ مِنْهَا جَاءَ لِلنَّاسِ يَعْرِفُونَ بِهِ كَيْفَ يَعْبُدُونَ رَبَّهُمْ، وَيُخْلِصُونَ  
الْقَصْدَ لَهُ، وَلَا يَضِلُّونَ السَّبِيلَ ﴿ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ  
وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ (١)، ﴿ قُلْ يَتَّيِّبُهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ  
اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا  
هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَاقَامُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأَمِينِ الَّذِي  
يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ (٢)

وَمَنْ تَدَبَّرَ عَرَفَ مَتَى يَقَعُ الْإِضْلَالُ وَالْفَسَادُ.

وَمَتَى يَكُونُ الشَّقَاءُ، وَيُرْفَعُ التَّرَاحِمُ.

فِي خَتَامِ الْآيَاتِينَ بَيَانٌ - أَيْ بَيَانٌ - لِطَلَبِ التَّرَاحِمِ وَالْمَهْدَايَةِ.

إِنَّمَا فِي اتِّبَاعِ مَا حُفِظَ بِحِفْظِ اللَّهِ مِنْ كِتَابٍ وَسُنَّةٍ.

﴿ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾

(١) الأنعام: ١٥٥.

(٢) الأعراف: ١٥٨.

﴿ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾

فَمَنْ ابْتغَى الْهَدَايَةَ وَالرَّحْمَةَ فَذَلِكَ هُوَ السَّبِيلُ، وَمَنْ يَرْغَبُ عَنِ  
الرَّحْمَةِ وَالْهَدَايَةِ فَذَلِكَ هُوَ الْمَصِيرُ ﴿ وَمَنْ يَعَصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ

حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ (١)

عَرَفَ الْمُسْلِمُونَ ذَلِكَ، وَأَيَقَنُوا بِهِ، كَمَا أَيَقَنُوا أَنَّ الذِّكْرَ الْحَكِيمَ -  
الَّذِي حَفِظَ بِحِفْظِ اللَّهِ - سَيَكُونُ عِنْدَ اللَّهِ حُجَّةً لِمَنْ أَوْ عَلَيْهِمْ.

حُجَّةٌ لِمَنْ إِنْ هُمْ عَمِلُوا بِهِ، وَاهْتَدَوْا بِهُدَاهِ.

وَحُجَّةٌ عَلَيْهِمْ إِنْ هُمْ هَجَرُوهُ، وَأَعْرَضُوا عَنْهُ، وَارْتَضُوا سِوَاهِ.

وَقَدْ اسْتَحْضَرُوا ذَلِكَ فِي جَمِيعِ أَعْمَالِهِمْ، فَرَأَيْنَاهُمْ لَا يُخَالِفُونَ  
لَهُ أَمْرًا، وَلَا يَسْتَبِيحُونَ لَهُ نَهْيًا.. فَنَصَرَهُمُ اللَّهُ حِينَ نَصَرُوهُ، وَتَعَوَّقَ  
نَصْرَهُمْ حِينَ قَصَرُوا فِي نَصْرِهِ، وَرَأَوْا أَنْفُسَهُمْ بَدُونَهُ.

وَعَرَفُوا أَنَّ مَنْ طَلَبَ النَّصْرَ لَنْ يَتَحَقَّقَ لَهُ إِلَّا بِنَصْرِ اللَّهِ فِي نَفْسِهِ.

عَرَفُوا ذَلِكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّهِمْ، وَسُنَّةِ نَبِيِّهِمْ. فَإِنَّ تَعَوَّقَ نَصْرَهُمْ،

(١) النساء: ١٤.

أثَمُوا أَنْفُسَهُمْ، وَلَمْ يَرْتَابُوا فِي وَعْدِ رَبِّهِمْ.

﴿ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَافًا هُمْ ﴾ (١)

كَتَبَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لِسَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَاصٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ  
حِينَ أَرْسَلَهُ إِلَى فَتْحِ فَارَسَ: " أَمَا بَعْدُ، فَإِنِّي أَمْرُكَ - وَمَنْ مَعَكَ مِنَ  
الْأَجْنَادِ - بِتَقْوَى اللَّهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ؛ فَإِنَّ تَقْوَى اللَّهِ أَفْضَلُ الْعُدَّةِ عَلَى  
الْعَدُوِّ، وَأَقْوَى الْمَكِيدِ عَلَى الْحَرْبِ.

وَأَمْرُكَ - وَمَنْ مَعَكَ مِنَ الْأَجْنَادِ - أَنْ تَكُونُوا أَشَدَّ احْتِرَاسًا مِنَ  
الْمَعَاصِي مِنْكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ؛ فَإِنَّ ذُنُوبَ الْجُنْدِ أَخَوْفُ عَلَيْهِمْ مِنْ عَدُوِّهِمْ.  
وَإِنَّمَا يُنْصَرُّ الْمَسْلُونُ بِمَعْصِيَةِ عَدُوِّهِمْ لِلَّهِ.

وَلَوْلَا ذَلِكَ لَمْ تَكُنْ لَنَا بِهَمْ قُوَّةٌ؛ لِأَنَّ عَدَدَنَا لَيْسَ كَعَدَدِهِمْ، وَلَا  
عُدَّتْنَا كَعُدَّتْهُمْ. فَإِنْ اسْتَوَيْنَا فِي الْمَعْصِيَةِ كَانَ لَهُمُ الْفَضْلُ عَلَيْنَا فِي الْقُوَّةِ.  
وَإِلَّا نَنْتَصِرُ بِفَضْلِنَا لَمْ نَغْلِبْهُمْ بِقُوَّتِنَا.

فَاعْلَمُوا أَنَّ عَلَيْكُمْ فِي سَيْرِكُمْ حَفِظَةً مِنَ اللَّهِ يَعْلَمُونَ مَا

(١) محمد: ٦.

تفعلون، فاستحيوا منهم، ولا تعملوا بمعاصي الله وأنتم في سبيل الله.  
ولا تقولوا: إِنَّ عَدُوَّنَا شَرُّ مَنَا، فَلَنْ يُسَلِّطَ عَلَيْنَا! فَرُبَّ قَوْمٍ سَلَّطَ  
عَلَيْهِمْ شَرُّ مِنْهُمْ، كَمَا سَلَّطَ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ - لَمَّا عَمَلُوا بِمَعَاصِي اللَّهِ -  
كُفَّارُ الْجَوْسِ، فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ، وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا.

وأسألوا الله العونَ على أنفسكم كما تسألونه النصرَ على  
عدوكم. أسألُ الله تعالى ذلكَ لنا ولكم."

تلك مكانة القرآن الكريم في حياة المسلمين.

عرفوا مكانته عملاً واتباعاً.

وأيقنوا أنهم به، ولم ولن يكونوا بسواه.

فكان احتراسهم من المعصية أشدَّ من احتراسهم من العدو.

عَرَفُوا ذَلِكَ، وَأَيَقَنُوا بِهِ وَاقِعًا، وَفِيهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ  
أَجَاهَهُمُ الْقُرْآنُ عَنِ سَبَبِ مَا وَقَعَ بِهِمْ فِي غَزْوَةِ أُحُدٍ.

﴿ قُلْتُمْ أَنِّي هَذَا قُلٌّ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ ﴾ (١)

(١) آل عمران: من الآية ١٦٥.

فَلَزِمُوا الطَّاعَةَ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ فِي كُلِّ شَأْنٍ صَغَرَ أَوْ كَبُرَ، وَطَلَبُوا  
نَصْرَ اللَّهِ بِصِدْقٍ وَإِحْلَاصٍ وَحُسْنِ اتِّبَاعٍ.

وكان للقرآن الكريم منزلته فيهم، وكان له تأثيره البالغ في  
نفوسهم، حتى رأينا أفراسهم وأعمالهم نابعةً من صِدْقِ إيمانهم و يقينهم  
بآيات ربهم.

وَمَنْ تَدَبَّرَ كِتَابَ عَمْرِو بْنِ عَبْدِ اللَّهِ عَنَّهُ لَمْ يَجِدْ كَلِمَةً وَاحِدَةً إِلَّا وَلَهَا  
أَصْلٌ مِنْ كِتَابٍ وَسُنَّةٍ، وَلَمْ يَجِدْ وَاحِدًا بَعِيدًا عَنْ صِدْقِ طَاعَةِ اللَّهِ  
وَحُسْنِ اتِّبَاعِ لِرَسُولِهِ.

بل لقد بلغ من تأثير القرآن فيهم، و يقينهم بأنه سيلازمهم في  
حياتهم وبعد موتهم، أن رأيناهم يستحضرون موقفهم بين يدي الله  
والقرآن يطالبهم بفريضته ويسألهم عن طاعته.

قال أبو الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِيمَا رَوَاهُ عَنْ ابْنِ حَوْشَبٍ: «أَخَافُ  
أَنْ يُقَالَ لِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ: أَعَلِمْتَ أَمْ جَهَلْتَ؟ فَأَقُولُ: عَلِمْتُ، فَلَا  
تَبْقَى آيَةٌ فِي كِتَابِ اللَّهِ - أَمْرَةٌ أَوْ زَاجِرَةٌ - إِلَّا وَتَسْأَلُنِي الْأَمْرَةَ: هَلِ  
اتَّمَرْتَ؟ وَتَسْأَلُنِي الزَّاجِرَةَ: هَلِ ازْدَجَرْتَ؟ فَأَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ عِلْمٍ لَا  
يَنْفَعُ، وَمِنْ دَعَاءٍ لَا يُسْمَعُ»

وهذا الكلام من أبي الدرداء، والعمل الذي يُصدِّقه، دليل يقينهم بما جاء في كتاب ربهم، وإيمانهم بقاء الله والحساب بين يديه.

فإن الإيمان بالآخرة لا يُبارح نفوسهم، ولا يُشغلون عن الاستعداد للآخرة، أو يُؤخذون بزينة أو متاع.

ولا شك أن الإيمان باليوم الآخر أصل من أصول الإيمان. ومن غاب عنه ذلك ضلَّ السبيل، وأساء ولم يُحسِن.

والقرآن الكريم كثيراً ما يُبين النتائج التي تترتب على اليقين به أو حجوده، في سلوك الإنسان أو روابط المجتمع.

فاليقين باليوم الآخر دافع إلى الخشية والمساورة إلى الخيرات.

والحجود به حُسرانٌ وتخبُّطٌ في الظلمات.

واستمع إلى النتائج في الحاليين:

﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ

بِعَايَةِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٢٩﴾

وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٣٠﴾

﴿ أُولَئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْحَيَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴾ (١)

تلك نتيجة الإيمان واليقين.

﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ

لَنَكِبُونَ ﴾ (٢)

وتلك هي نتيجة الغفلة عن اليوم الآخر ونسيانه.

إنهم ناكبون عن كل صراطٍ مُوصِلٍ للغاية. والثَّابِتُ: العادلُ عن شيءٍ، المُعْرِضُ عنه.

ذاك ما يترتبُ على حُجود الآخرة.

وهناك عقابٌ عاجلٌ لِمَن أصرَّ على الكُفران والجُحود.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ

يَعْمَهُونَ ﴾ (٣)

(١) المؤمنون: ٥٧ - ٦١.

(٢) المؤمنون: ٧٤.

(٣) النمل: ٤.

ذالك عقابهم في العاجلة قبل الآخرة ﴿ زَيْنًا هُمْ أَعْمَلَهُمْ فَهُمْ  
يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾ ﴾ فَيُسِينُونَ وَهُمْ يَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ ﴿ قُلْ هَلْ  
نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٢﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا  
وَهُمْ يَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ مُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٣﴾ ﴾ (١)

وما أشدَّه عقاب. أن يُصابَ الإنسانَ بالعمى - وهو عمى  
البصيرة - فلا يُميزُ بين الأشياء، بل يمضي في الحياة بلا اهتداء !

﴿ أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءَ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ  
يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ  
عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ (٢)

والقرآن الكريم كما بينَ حكمةَ الخلق، ودعا إلى عبادة الله  
وحده لا شريك له، قد حذَّر من الوقوع فيما يُناقض ذلك أو يخالفه  
بشركٍ أو ابتداع، وحاطبَ نبيه ﷺ بذلك؛ ليوعظَ غيره.

(١) الكيف: ١٠٣، ١٠٤.

(٢) فاطر: ٨.

﴿ وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِن أَشْرَكْتَ  
 لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ اللَّهُ فَاعْبُدْ وَكُنْ  
 مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ (١)

إن إخلاص الدين لله وعدم الإشراك به، لم يكن وقفاً على عمل  
 دون عمل، بل كان أصلاً في كل نية وقول وعمل، وهم يعلمون أن  
 الشرك مُدمرٌ لأهله، مُحبطٌ مُبطلٌ.

﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخَطَفَهُ الطَّيْرُ  
 أَوْ تَهْوَىٰ بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٦٧﴾ ﴾ (٢)

عرَفُوا ذلك من كتاب ربهم وسنة نبيهم، فاحترسوا من الشرك،  
 وابتعدوا عن الرياء، وتصدقوا ولم يُطلبوا صدقاتهم بمن أو أذى.

فكان القرآن - وهم يرونه خلقاً لرسول الله ﷺ - دستورهم  
 في كل أمرٍ ورائداهم في كل شأنٍ، لا يُخالفون له أمراً، ولا يرتكبون

(١) الزمر: ٦٥، ٦٦.

(٢) الحج: من الآية ٣١.

نهيًا. وهم يروون عزيتهم في طاعته، وشرفهم في حسن اتباعه.

لا يغيب عنهم - في أي أمر صغر أو كبر - أن يعرضوا ما يرونه لأنفسهم على كتاب ربهم وسنة نبيهم، وأن يردوا ما يتنازعون فيه أو يختلفون إلى الله والرسول ﷺ؛ عملاً بقول ربهم:

﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي  
الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِن تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ  
تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ (١)

فقدًا إيمانهم واستقامتهم - كما أمرهم ربهم - فطرة لا تكلف  
فيها ولا عسر معها.

﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ  
وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (٢)

فتحقق لهم بالقرآن الكريم خصائص وصفات واجهوا بها - في

(١) النساء: ٥٩.

(٢) الأعراف: ٤٢.

حياتهم - جميع التحديات، وشقوا طريقهم منتصرين ظافرين بفضل ربهم، وكانت هذه الخصائص - دائماً - هي العاملة في استنهاض المهتم؛ للأخذ بالأسباب في كل عصرٍ وزمن.

لقد كان القرآن الكريم - وما زال - مبعث حياة لهذه الأمة.

به اعتصمت فتوحدت، وتمسكت فاهتدت.

وعاشت تاريخها بين مدٍّ وجزرٍ.

يعلو شأنها حين تعتمصم به ولا تفرق.

ويصيبها من الهوان ما يصبها حين تُشغل عنه، أو تُعترِّب غير ما

أعزها الله به.

بهذا الكتاب تُعرف قيم الناس، وتوزن أعمالهم.

وبه يرفع الله أقواماً، ويضع آخرين.

وهو ثابت لا يتغير، محفوظ بحفظ الله لا يتبدل.

وأمتنا بخير - دائماً - إن هي أحسنت كيف تحيا به.

إنه يحفظ شخصيتها، ويقي عليها مُمتدة مع الزمن كله،

ويجعلها تصمُدُ أمام المخاطرِ والمُعريات.

والقرآنُ الكريم قد علّم المؤمنين به أن يأخذوا بالأسباب في شتى المجالات؛ فإن التفریطَ في الأخذ بالأسباب معصيةٌ، كما أن الرُّكُونَ إلى الأسباب - دونَ توكلٍ على الله - مفسدةٌ ومضيعةٌ.

استنّهضَ القرآنُ همّتَهم، وجمَعَ شملَهم، فقاموا بالأخذ بالأسباب؛ طاعةً لربّهم لئصرةَ الحقِّ، وإقامةِ العدل، دونَ تفرقةٍ بين عدوٍّ وصديقٍ، وقريبٍ وبعيدٍ؛ عملاً بقول ربّهم:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلّٰهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ ؕ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللّٰهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىَٰ أَن تَعْدِلُوا ؕ وَإِن تَلَوْدَا أَوْ تَعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ (١)

هكذا أمرُوا، وهكذا فعلوا. فنصروا المظلومَ ولو كان من غيرهم، وأخذوا على يدِ الظالم ولو كان منهم؛ طاعةً لله واستجابةً لرسوله ﷺ،

(١) النساء: ١٣٥.

حيث قال: « أَنْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا. فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَنْصُرُهُ إِذَا كَانَ مَظْلُومًا، أَمَرَأَيْتَ إِذَا كَانَ ظَالِمًا، كَيْفَ أَنْصُرُهُ؟ قَالَ: تَحْجِزُهُ أَوْ تَمْنَعُهُ مِنَ الظُّلْمِ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ نَصْرُهُ » (١)

نصروا الحق في أنفسهم أولاً بتغليب أمره على هواهم، ولم يستطع كيّد عدو أن يصرفهم عن الحق، أو يستخفهم عن التمسك به والإصرار عليه.

وهم يعرفون عاقبة الثبات على الحق، ويؤمنون أن لكل أمرٍ عاقبته، وأن لكل عملٍ جزاءه، وأن الموت في نصرة الحق حياة، وأن الحياة في معية الباطل موت، فصبروا وصابروا، وثبتوا مع الحق وإن قلَّ عددهم، وهم موقنون بحسن العاقبة وإن طال الزمن.

فإن من تدبّر العواقب أيقن أن الحق لا يهزم أبداً، وأن المنكرين له، الصادقين عنه، مأخوذون به؛ فإن للحق نوراً وناراً، فمن أبقى النور فالنار موعده.

والمؤمن وهو يحيا مع كتاب ربه - الذي يُثِيرُ في نفسه دوافع

(١) البخاري: كتاب الإكراه، باب يمين الرجل لصاحبه إنه أخوه إذا خاف عليه، رقم ٦٤٣٨.

العِزَّة، ويُعرفه مكان أُمَّتِهِ، وما يجب أن تكون عليه - لا تنطفئ شعله أمله، بل يأخذُ بالأسباب وهو يعرفُ سُننَ رَبِّهِ، وألها سُننٌ لا تُجامِل ولا تُحايي، ولا تتبدَّل ولا تتغيَّر، فيأخذ نفسه بأسباب العِزَّةِ والنُّصْرِ، ويتجنب أسباب الهوان والذُّل.

والقرآن الكريم يَقصُّ عليهم أحوال الأمم الماضية؛ ليرىهم من خلالها سُننَ الله الباقية ﴿ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴾ هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿ وَلَا تَهْنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (١)

هكذا يُعرفهم القرآن - في وقائع - نتائج الأعمال، ويُصِرُّهم بعواقب الأمور، فلا يعملون بما تسوء عاقبته ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَدَّ بِنَهَا عَذَابًا نُكْرًا ﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿ أَعَدَّ اللَّهُ

(١) آل عمران: ١٣٧ - ١٣٩.

هَمَّ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ الَّذِينَ ءَامَنُوا ۗ قَدْ  
 أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿٦٠﴾ رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ  
 لِيُخْرِجَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۗ  
 وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا  
 الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۗ قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا ﴿٦١﴾ (١)

والقرآن الكريم - وهو يهدي في كل شأنٍ للتي هي أقوم - لا  
 تنفصل فيه الشريعة عن العقيدة، ولا تنهضُ الشريعةُ ويحسُنُ العمل  
 إلَّا بصدقِ العقيدة واستحضارها.

﴿ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ ﴾ (٢)

من هنا لا نرى آيةً في القرآن الكريم خلّت من العقيدة في ثنايا  
 كلماتها، أو حواتيم آياتها.

ففي آيات المواريث - مثلاً - وهي تُبينُ ما يتعلّق بتركة الميت من

(١) الطلاق: ٨ - ١١.

(٢) التباين: من الآية ١١.

فروض، وما يكون للورثة من حقوق ونرى في خواتيم الآيات الثلاث:

﴿ فَرِيضَةٌ مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ (١)

﴿ وَصِيَّةٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴾ (٢)

وبعد هاتين الآيتين نقرأ قوله تعالى مُشيراً إلى ما حدّد من حقوق،  
وَيَبِّنَ مِنْ فَرَائِضٍ: ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ  
تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ وَمَنْ  
يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ  
مُّهِينٌ ﴾ (٣)

وفي ختام الآية الثالثة من آيات الموارث، وهي ختام سورة  
النساء، يأتي قوله تعالى: ﴿ يَبِّينُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ  
عَلِيمٌ ﴾ (٤)

(١) النساء: من الآية ١١.

(٢) النساء: من الآية ١٢.

(٣) النساء: ١٣، ١٤.

(٤) النساء: من الآية ١٧٦.

مَا دَلَالَةُ ذَلِكَ ؟

دلالتُه أن ما شرع اللهُ من أحكامٍ، وما أمر به أو نهى عنه في أيِّ شأنٍ يكون العمل به موافقاً إذا لم تُصاحبه خشيةٌ وثقًى وإيمانٌ؛ فالعقيدة هي الروح، ولا حياة بدونها لإنسان.

من هنا كان القرآنُ هو المصدرُ المحفوظُ من الله؛ ليكونَ دَوْماً مصدرَ هدايةٍ وتبصرةٍ لتقويمِ حياةِ الناسِ بمعرفةِ اللهِ وخشيتهِ أولاً.

وعليه تكونُ الشريعةُ، ويكونُ التنظيمُ موضعَ تقديرٍ وحُسنِ استجابةٍ من الناسِ؛ إذ لا تُملية الأهواءُ، وإنما يُملية صِدْقُ التدبيرِ والاستجابةُ لله ﴿ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بَغْيَ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (١)

وهكذا تُمزجُ الشريعةُ والعقيدةُ في القرآن، فيرى في الشريعة نورَ العقيدة، ويرى أنزُلَ العقيدة في العملِ بالشريعة، عدلاً وصدقاً، وأمانةً وحقاً.

(١) القصص: ٥٠.

وما أجمل وأكمل أن نرى العقيدة حاضرة في أدقّ شئون  
 الإنسان وما يتغيه، فقرأ في قوله تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا  
 عَرَضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْتَمْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ<sup>١</sup> عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ  
 سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُؤَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا وَلَا  
 تَعْرِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابَ أَجَلَهُ<sup>٢</sup> وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ  
 مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ<sup>٣</sup> وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ<sup>٤</sup>﴾ (١)

نقرأ في ختام هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي  
 أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ<sup>٣</sup> وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ<sup>٤</sup>﴾  
 إن هذا الاستحضار لأمر العقيدة في جزئيات العمل في الحياة  
 هو السبيل لتحقيق رقابة ذاتية تقوم في نفس الإنسان ولا تغيب.  
 وشتان بين حالين:

بين حال يستحضر منه المؤمن رقابة ربه، فكيف عن الشر، رآه  
 الناس أو غابوا عنه.

(١) البقرة: ٢٣٥.

وبين حالٍ يكون فيه الكَفُّ عن الشرِّ مُجرِداً من اليقين برقابةٍ  
لا تغيب.

هنا - مع اليقين والإيمان - ترى أمامك إنسان سلمٍ وأمنٍ، بلا  
تكاليف.

وفي غيبة الإيمان يغيبُ إنسانُ السَّلْمِ والأَمْنِ، فلا يقوم في الناس  
سِلْمٌ ولا أَمْنٌ مهما بلغت التكاليف؛ إذ لا سِلْمٌ بلا إيمانٍ لا يشوبه ظلام  
شرك أو فسادُ إفك، ولا أَمْنٌ بلا إنسانٍ لا يلبس إيمانه بظلم.

﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ  
وَهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴾ (١)

وفي حديث القرآن عن القرآن ترى العقيدة حاضرةً نيرةً بنور  
الأسماء والصفات، صفاتٍ من نزل الذكرٍ وحفظه؛ لتعرفَ للقرآن  
منزلته وعزته ورحمته، وأنه ليس مجرداً عن قوّةٍ تُحقق وعده  
ووعيده. فمن نزلّه هذه صفاته، وتلك أسماؤه.

فتقرأ في سورة الحشر قوله تعالى:

(١) الأنعام: ٨٢.

﴿ لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا  
مُتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ۚ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ  
يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ (١)

وتقرأ بعد هذه الآية مباشرة: ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ  
عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ۚ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿٢١﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا  
إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ  
الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٢﴾ هُوَ اللَّهُ  
الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمَصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي  
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٣﴾ ﴾ (٢)

فترى اسم الله وصفاته تتكرر مع الحديث عن القرآن، فتعرف  
دلالة هذه الصفات وأثرها في نفسك وفي الآفاق من حولك، وتعرف  
صدق ما أخبر به القرآن عن تأثيره والتأثير به. إذ لو كان المخاطبُ

(١) الحشر: ٢١.

(٢) الحشر: ٢٢ - ٢٤.

جلاً، وكان الجبل يفهم الخطاب لتأثر بخطاب القرآن تأثراً ناشئاً من خشية الله ﴿لَرَأَيْتَهُ خَشِيعاً مُتَّصِداً مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾

ما ذاك إلا لأن القرآن كلام الله، وتلك أسماؤه وصفاته.

وقد تكرّر في سورة (الحشر) وحدها ذِكْرُ اسم الله وضمائره وصفاته أربعين مرّةً، منها أربع وعشرون يذكر اسم الجلالة (الله) وست عشرة مرّةً يذكر ضميره الظاهر أو صفاته.

ومن تدبّر ذلك عرّف مكانة القرآن، وأنه الكتاب الذي تُرى فيه رسالة الرُّسُل جميعاً كما جاءت من عند الله.

وعرّف أنّهم ما بُعثوا جميعاً إلا بدين واحد (هو الإسلام).

وذلك كتابه الذي يُعرّف منه ما جاء به إبراهيم وموسى وعيسى - عليهم السلام - وما أمروا به، وما دعوا إليه.

وبذلك يكون حفظه حفظاً وبيانا لما أُرسِلوا به، وشهادةً يشهد بها المسلمون على الأمم جميعاً بأن رُسلهم قد بلغوا ما أمروا به.

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى  
النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾<sup>(١)</sup>

﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ  
الْكِتَابِ وَمُهَيِّئًا عَلَيْهِ ﴾<sup>(٢)</sup>

وبعد، فإن القرآن الكريم قد نُزِلَ وحُفِظَ من أجل الإنسان.  
وحديث القرآن عنه وإليه حديثٌ أخادٌ، تخشعُ له القلوبُ،  
وتطيبُ النفوسُ.

والإنسان - وهو يُخاطَبُ بالقرآن - يرى دلالاته في نفسه وفي  
الآفاق من حوله، وعندئذ يكون بيان الحق والعمل به فطرياً لا عسراً  
فيه ولا تكلفَ معه ﴿ سَتَرِيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى  
يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾<sup>(٣)</sup>

(١) البقرة: من الآية ١٤٣.

(٢) المائدة: من الآية ٤٨.

(٣) فصلت: من الآية ٥٣.

(مَشْهَدٌ تُرَى فِيهِ الْأَرْضُ وَالسَّمَاءُ)

ومن أجل الإنسان حيثُ كان تَسْقِ آيات القرآن مع آيات الله في الأنفس والآفاق في مخاطبته؛ ليظَلُّ موصولاً بالمعرفة، معصوماً بالهداية والخشية، يُبَصِّرُ بالقرآن نفسه، ويعرف حكمة خلقه، ويرجو رحمة ربه.

وقد حُفِظَ الْقُرْآنُ؛ لِنَظْلِ الصَّلْةِ بَيْنَ الْخَالِقِ وَالْمَخْلُوقِ مَوْصُولَةً لِحَبْلِ تَعْتَصِمُ بِهِ النُّفُوسُ وَتَأْتَلِفُ الْقُلُوبُ.

ويظَلُّ الْقُرْآنُ فِي النَّاسِ يُقَدِّمُ هِدَايَتَهُ وَتَبَصَّرَتَهُ، وَيُعَرِّفُهُمْ مَا لَمْ يَكُونُوا يَعْرِفُونَهُ فِي مَاضٍ وَحَاضِرٍ وَمُسْتَقْبَلٍ.

يُرِيهِمْ شُؤْنَ دُنْيَاهُمْ، وَيَأْخُذُهُمْ بِنُورِهِ إِلَى عَاقِبَتِهِمْ وَأُخْرَاهُمْ.  
يُحَدِّثُهُمْ عَنِ الْجَنَّةِ وَمَا فِيهَا، وَيَجْعَلُهُمْ يُبَصِّرُونَ نَعِيمَهَا، وَيُقَرِّبُهُمْ مِنْهَا؛ حَتَّى يَشْمُؤُوا رِيحَهَا.

وَيُحَدِّثُهُمْ عَنِ النَّارِ، وَيُرِيهِمْ أَصْحَابَهَا وَهُمْ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا، وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا.

يُرِيهِمُ الْمَقْدَمَاتِ وَالنَّاتِجِ لِأَمَمٍ مَضَتْ وَقُرُونٍ خَلَّتْ.

وَالْقُرْآنُ الْكَرِيمُ حَافِلٌ بِالزَّمَنِ كُلِّهِ، مَاضِيهِ وَمَا حَوَى،

ومستقبله بما احتوى، وحاضرِهِ بما يشتملُ عليه من مشاكلٍ متعددةٍ، وقضايا متنوعةٍ، يقفُ منها موقفَ الحُكْمِ العدلِ الذي يُسَوِّي بين الخلقِ، ويقضي بينهم بالحقِّ، ويرفَعُ معالمَ الهدى، ويُثِرُ دوافعَ الرحمة.

﴿ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ

وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (١)

من هُنَا تُعْرَفُ مكانة القرآن في حياة المسلمين وتاريخهم، وأنه سِرَاجٌ وَهَّاجٌ يُمْسِكُ زمامَ النفوسِ، بما احتوى من قوَّةِ الجذب والتأثير، فهو في علوِّه ساطعٌ بنوره، تنجذب النفوسُ حوله، وتدور في فلكه، فيمسكُ بها مضيئةً مُشْرِقةً، آمنةً مطمئنةً، عادلةً مُعتدلةً، لا تحيد عن الحقِّ أو تميل، كما تُمسِكُ الشمسُ بعالمِها، وتدور حولها كواكبها، وهي تجود بالحياة، وتبعثُ بالضياء، وتشرقُ بالنور. والذي جعل الشمسَ ضياءً هو الذي جعل الكتابَ نوراً.

﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا

الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِّنْ

عِبَادِنَا ﴿<sup>(١)</sup>

ولذا فإنَّ شمسَ الإسلام - في حياة الأنام - لا تَغِيب، إنْ بَارَحَتْ رِءُوسَ قَوْمٍ أُنَارَتْ عِنْدَ آخَرِينَ. وَلَنْ تَسْتَطِيعَ قُوَّةٌ - مَهْمَا بَلَغَتْ - أَنْ تُحَيِّسَ ضَوْءَهَا، أَوْ تُوقِفَ مَدَّهَا.

إِنَّمَا سَابِحَةٌ فِي فَلَكِهَا، مُسَبِّحَةٌ تُذَكِّرُ بِرَبِّهَا، وَالذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ <sup>ط</sup> وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿<sup>(٢)</sup> (مَشْهُدٌ مِنْ حَرَكَةِ الشَّمْسِ فِي شُرُوقٍ وَغُرُوبٍ)

\*\*\*

(١) الشورى: من الآية ٥٢.

(٢) إبراهيم: ٣٣.

## التبصرة بالآيات البينات

أولاً: تبصرة الإنسان بنفسه:

﴿ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ (١)

﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا

مَذْكُورًا ﴾ (٢)

نعم، جاء على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً. وهذا التذكير بأن كل إنسان قد كُؤن بعد أن لم يكن. بل هذا التقرير يقتضي أن يُوقن الإنسان بإعادة تكوينه بعد عدمه.

﴿ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ (٣)

فلننظر كيف بدأ خلق الإنسان؟ وذلك حديث القرآن:

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٠٠﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً

(١) الذاريات: ٢١.

(٢) الإنسان: ١.

(٣) الإسراء: من الآية ٥١.

فِي قَرَارِ مَكِينٍ ﴿١٧﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا  
 الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أُنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ  
 اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنكُرْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيُّونَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ إِنكُرْ يَوْمَ  
 الْقِيَمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ  
 الْخَلْقِ غَافِلِينَ ﴿٢١﴾ ﴿١﴾ (مَشْهُدُ تَشْبِثَةِ الْإِنْسَانِ وَتَطَوُّرِهِ فِي رَحِمِ أُمِّهِ)

ثانيا: تبصرته بطعامه:

وذاك حديث القرآن ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾ ﴿٢٢﴾ أَنَا  
 صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿٢٣﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٤﴾ فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٥﴾  
 وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٦﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٧﴾ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ﴿٢٨﴾ وَفَيْكِهَةً وَأَبًّا ﴿٢٩﴾  
 مَتَعًا لَكُمْ وَلِأَنْتُمْ كَرِيمًا ﴿٣٠﴾ ﴿٢﴾

وأثر ضمير العظمة (نا) في قوله: ﴿أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ﴾، ﴿ثُمَّ  
 شَقَقْنَا الْأَرْضَ﴾، ﴿فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا﴾؛ لنعلم أن العقيدة الفطرية -

(١) المؤمنون: ١٢ - ١٧.

(٢) عبس: ٢٤ - ٣٢.

التي وُلِدَ الإنسانُ عليها - لا تكلفَ في فهمها، ولا عُسرَ في العملِ بمقتضاها ﴿ فَأَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ (١)

أليسَ مَنْ خَلَقَ وَرَزَقَ يستحقُّ أن يُعبدَ؟ ولا يستحقُّ أن يُعبدَ أحدٌ سواه؟ ﴿ يَتَأَيُّبُ النَّاسُ أَعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢﴾ ﴾

(مَشْهُدٌ تُرَى فِيهِ الْأَمْطَارُ وَالزُّرُوعُ وَالنَّمَارُ)

ثالثا: تبصرته بما يُسخرُ من أجله:

وذاك حديثُ القرآن ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَابِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ

(١) الروم: من الآية ٣٠.

(٢) البقرة: ٢١، ٢٢.

جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيَصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنِ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ ﴿١١﴾ (١) (مَشْهَدٌ مِنَ الْكُونَ فِيهِ جَمَالٌ وَجَلالٌ، وَتَبْصِرَةٌ وَتَذْكَرَةٌ، وَعِيرَةٌ لِمَنْ يَعْتَبِرُ)

وهذا المشهد يكفي في مخاطبة الإنسان بأن القرآن تنزيلٌ من الرحمن الرحيم؛ فمن ذا الذي يستطيع أن يَصِفَ هذا المشهد الذي يحمل في طياته عجائب قدرة وحكمة؟ وأن يجعله - في علوه - مجال تبصرة وعيرة ترتفع به النفس وتسمو، ولا تخلد إلى الأرض إن هي استمسكت بما يُوحى به، وتذكرت به واهتدت؟

﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقِنَهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ (٢)

وكذلك هنا تُرى العقيدة، عقيدة البعث - الذي هو أصلٌ من أصول الإيمان - تأتي دلالتها في مشهدٍ فطريٍّ لا تكلف فيه، ولا

(١) النور: ٤٣.

(٢) الأعراف: ٥٧.

عُسْرَ فِي الْيَقِينِ بِهِ.

كما تُخْرَجُ الثَّمَرَاتُ مِنْ حُبُوبٍ كَانَتْ مَقْبُورَةً فِي الْأَرْضِ،  
كَذَلِكَ تُخْرَجُ الْمَوْتَى مِنْ قُبُورِهِمْ؛ ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (١).

رابعاً: تبصرته بالواقع:

والقرآن الكريم - وهو يُبَصِّرُ وَيُذَكِّرُ - يُرِينَا حَقِيقَةَ مَا يُحَدِّثُ بِهِ  
فِي وَاقِعٍ. كَمَا نَرَى آثَارَهُ فِي صِيَاغَةِ أُمَّةٍ رَبَّانِيَّةٍ ذَاتِ رِسَالَةٍ مَحْفُوظَةٍ بَاقِيَةٍ.  
لَقَدْ صِيغَتْ هَذِهِ الْأُمَّةُ بِكِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ.

وَكَانَ الرَّسُولُ ﷺ هُوَ التَّطْبِيقُ الْحَيُّ لِمَا جَاءَ بِهِ الْقُرْآنُ، فِي إِيْمَانِهِ  
وَسُمُو أَخْلَاقِهِ وَحُسْنِ مَعَامَلَاتِهِ فِي شَتَّى الْمَحَالَّاتِ، حَتَّى غَدَّتْ الْفَضَائِلُ  
وَالْمَكَارِمُ حَيَّةً تَتَحَرَّكُ أَمَامَ النَّاضِرِينَ، يَرَوْنَهَا فَيَمُنُّ قَالَ اللَّهُ فِيهِ.

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا

اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْأَخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ (١)

لَقَدْ كَانَتْ حَيَاةُ الرَّسُولِ ﷺ قَدْوَةً طَيِّبَةً، أَثَرَتْ تَأْثِيراً بِالْعَاقِبِ فِي

أهل بيته وصحابته ومن تبعه من المؤمنين.

وعلى مر التاريخ نرى مواقف إسلامية شاهدة بالتغيير الكبير، والتحول العظيم، والنقلة الهائلة التي أحدثها القرآن الكريم في القلوب والأفكار، والأعمال والأخلاق.

وكفى المسلم - في كل زمان ومكان - أن يرى القرآن الكريم عملاً وحلقاً لرسول الله ﷺ.

وما من آية تُتلى على الناس - إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها - إلا وقد مرت بقلب رسول الله ﷺ، فلا غرابة أن يكون القرآن الكريم له خلقاً، وأن يكون تأثير الناس بالقرآن وإقناعاً يروته في أسوة وقُدوة، وأن يكون اتباع الرسول ﷺ اتباعاً للقرآن، وأن تكون طاعته طاعةً لله.

إن تحولاً هائلاً قد وَقَعَ في الأرض بنزول القرآن على النبي الأمي محمد رسول الله ﷺ، سارت معه قافلة الحياة على هدى ونور، ونشطت - مع فجره - نفوسٌ لبّت نداء ربها، فأحياها وجعل لها نوراً تمشي به في الناس، وبقي القرآن الكريم للحياة بقاءً النور في الكون، لا يتوقف مدته إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

لقد نزل القرآن الكريم، وبنزوله طويت الكتب، وختمت

الرسالات، وحُفِظَت للناس أسبابُ الحياة.

وقد صان اللهُ كتابه من التحريف والتبديل. ومَضَى القرآنُ في الحياة يُعَلِّمُ الرسالة، رسالة الأنبياء جميعاً كما جاءت من عند الله، ويقيمُ الحجةَ على الناس جميعاً، ويدعوهم إلى كلمةٍ سواء. يدعو الناس في كُلِّ زمنٍ، ويُثَلِّي عليهم في كُلِّ مكانٍ، ويهديهم في كُلِّ شأنٍ.

وللقرآنٍ منهجُه في إعداد الإنسان حيث كان. لا يَقِفُ به عند ظاهرِ الحياة الدنيا، بل يَصِلُه بحكمةٍ خَلَقَه وغايةٍ وجوده.

ولا يفصل علمه بظاهر الحياة عن علمه بحقيقتها وغايتها. ولا يُلهيه بذيائه عن أحراره.

وبذا تتحقَّقُ الضوابط الخلقية التي تصون الإنسانَ من ظُلمِ نفسه، أو ظُلمِ غيره.

وهذه الضوابط ليست نتاجَ العلم بظاهر الحياة الدنيا وإيثارها، وإنما نتاجُ الإيمان بالآخرة وإرادتها، والعمل لها.

وهذا العلم - بهذه السعة - هو الذي يُنشئ حضارةً متكاملةً، يُرى فيها الإنسانُ بقيمه وفضائله. الإنسانُ الذي يُقدّمُ خَيْرَهُ، وَيُكْفُ شَرَّهُ، ويتغنى فيما آتاه اللهُ الدَّارَ الآخِرَةَ، ولا ينسى نصيبه من الدنيا.

إنَّ الحضارةَ التي ينشدها القرآنُ الكريمُ حضارةٌ روحٌ وحَسَدٌ، والعلمُ الذي يدعو إليه يخدمهما معاً، ولا يختص بأحدهما دون الآخر؛ لأن هذا الدِّين هو دينُ الفطرة، والفطرة - في حقيقتها - رُوحٌ فاعلةٌ في مادةٍ مُفْعَلَةٍ، والإنسانُ في تكوينه - وهو من قامت به الحضارةُ وله - رُوحٌ وحَسَدٌ، ورعايةُ أحدِ الجانبين دون الآخر مُنافاةٌ للفطرة، وتعطيلٌ لجهود الإنسانية، وانحرافٌ بغايتها.

الإنسانُ رُوحٌ وحَسَدٌ.. والإنصافُ يقتضي الإقرارَ بكما معاً، على حقيقتهما في التأثير والتأثر.

والعلم الذي يُراد له أن يرعى أَحَدَ الجانبين دون الآخر، يُقيّمُ بنتائجه معركةً صاحبةً في ذات الإنسانِ أولاً، لا تلبث أن تتحرك منه إلى خارجه، في أنانية حَسِيعَةٍ وأثرَةٍ مُفْرِعةٍ.

تلك الفطرة، وتلك الحضارة التي تتحقق بها حكمةُ خلقِ الإنسان.

وَوَيْلٌ لِّلْحَضَارَةِ تُحَاطِبُ فِي الْإِنْسَانِ شَهْوَتَهُ، وَتُهْمِلُ فِطْرَتَهُ،  
تضع في يده أسلحةَ الفتنِ والدمارِ، ولا تُبقي في قلبه الخشيةَ من  
العزير الجبار!

إنَّ الحضارةَ المتكاملةَ هي التي تحوِّطُ الإنسانَ من جانبيه:  
الرُّوحَ، والجسدَ. وتُعطي كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ.

فتصون النفسَ من غوائلِ الهوى، وتعصمُ الفكرَ من الغرورِ،  
وتقيمُ العَدْلَ في ذاتِ الإنسانِ - بين فضائلِ رُوحِهِ، ومطالبِ جسدهِ  
- في توازنٍ وحكمةٍ واعتدالٍ؛ ليتحقَّقَ العدلُ في الخارجِ - خارجِ  
النفسِ - بلا تكلفٍ أو مَيْلٍ أو تجاوز.

وتلك هي الحضارة التي يُقيمها القرآن بتربية الإنسان، وقد  
أنزل القرآنُ وحُفِظَ من أجله، وما حُفِظَ لهداية الإنسان لا يُحفظُ  
الإنسانُ إلاَّ به ﴿فَمَنْ أَتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ (١) وَمَنْ  
أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا ﴿ (١)

وتفاعل الإنسان - حيث كان - مع الكون ملحوظٌ في آياتِ

(١) طه: ١٢٣، ١٢٤.

القرآن وهو يُري الإنسان صنْعَ رَبِّه، في ذاته وفي الآفاق من حوله.

وَكَمْ فِي الْقُرْآنِ مِنْ آيَاتٍ تَدْعُو إِلَى التَّأْمُلِ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ  
وَالْأَرْضِ، وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ.

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ  
وَإِنَّ السَّاعَةَ لَأَيَّتُهُ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴾ (١)

وخلقُ السماوات والأرض وما بينهما بالحق يُوحى أن الحق عميقٌ في تصميم هذا الوجود، عميقٌ في تكوينه، عميقٌ في تدبيره، عميقٌ في مصير هذا الوجود وما فيه، ومن فيه؛ فهو لم يُخلق عبثاً ولا باطلاً، وإنما خلُقَ لغايةٍ وحكمة.

والقرآنُ وهو يُري الإنسان ذلك حيث كان، يُبينُ له حكمةَ هذا الخلق؛ حتى لا يأخذ من الكون منفعتَهُ ومتاعَهُ، ويُهملُ حكمته وتبصرته.

﴿ أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا  
لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ﴾

(١) الحجر: من الآية ٨٥.

﴿ مِنْ كُلِّ رَوْحٍ بِهِيجٌ ﴿٦﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴿٧﴾ ﴾ (١)

والإنسان إن هو أهمل ما من أجله خلق، ووقف بالتفكير والنظر عند المتاع، ولا يزيد، فقد رضي لنفسه أن يكون كالأنعام، بل أضل؛ فالأنعام تشارك الإنسان في المتاع، وليست مؤهلة لتدبر ما في النعمة من آيات، وكفاها أن تكون للإنسان متاعاً، وأن تحقق - بذلك - ما خلقت له، أما ما في النعم من آيات فهي لأولي النهي؛ تبصرة وتذكراً.

﴿ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَمَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى ﴿٢﴾ ﴾ (٢)

وكم من ناس في أرض الله لا يأخذون من نعم الله إلا ما تأخذه الدواب والأنعام، فيخضعون حواسهم لشهواتهم ومنافعهم، ويتخذون من نعم الله مطية لظلمهم وإفسادهم، دون النظر لما هم مقبلون إليه ومحاسبون عليه.

ومن فائته دلالة النعمة على المنعم، وصلة العاجلة بالآخرة، أفسد وأضل، وعاش أيام دُنياه يأخذ منها الأدنى، ويدع الأعلى

(١) ق: ٦ - ٨.

(٢) طه: ٥٤.

والأبقى، وهو يحسب أنه يُحسِنُ صنْعاً!

إن الله إنما خَلَقَ الخَلْقَ؛ ليذُلَّ عليه ويدعو إليه. فمن غَفَلَ عن دلالة خَلْقِ السماوات والأرض وما بينهما بالحق، وأهتما تذكرة لأحراهم قبل أن تكون متاعاً لدُنْيَاهِم. أفسدَ ولم يُصْلِح.

إن برهان الآخرة يُساقُ في متاع الدنيا؛ ليقدمَ مع النعمة شكرها. وفي الشكرِ تراحمٌ بين الخلق، وبرٌّ بالمخلوق.

إن أهل التقي والإيمان هم الذين تكون الآيات لهم للحق وإن تمتعوا بما فيها من نعم. أمّا عند غيرهم فهي للمتاع لا للحق، وللعاجلة لا للآخرة، ولأهوائهم لا لمعرفة ربهم ﴿ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١)

والإنسان - كما نعلم - اجتماعيٌ بفطرته، وهو لا يعيشُ في الأرض وحده. وهو خَلَقُ الله، والله يعلم من خَلَقَ ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ (٢)

(١) العنكبوت: ٤٤.

(٢) الملك: ١٤.

وكان من رحمته به أن أمده بهدايته منذ بدايته.

وكان من فضله أن أرسل رُسُلَهُ، وأنزل الكتاب بالحق؛ ليتعاون الناسُ فيما بينهم على إقامة الحق والعدل. بمنهج لا تُمليه أهواؤهم ﴿ وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ﴾<sup>(١)</sup>

من أجل ذلك أرسل الله الرسل بالبيئات، وأنزل معهم الكتاب والميزان؛ ليقوم الناسُ بالقسط كما أمرهم الله.

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾<sup>(٢)</sup>

هكذا هدفتُ رسالاتُ الله إلى إقامة العدل.

(١) المؤمنون: من الآية ٧١.

(٢) الحديد: ٢٥.

أليس الله هو الحق المبين ؟

وجاءت العقيدة في الله أساساً لإحقاق الحق، وإقامة العدل.

فهو وحده الذي ليس كمثل شيء ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ (١) والناس بعد ذلك أشباه وأنداد. كلهم مخلوق، وكلهم عباد. والله الغني عن العالمين هو الذي يُقسّم بين الناس الحقوق دُونَ محاباةٍ أو تحاملٍ.

ومن هنا تأتي شريعته بالحق المبين الذي يعلو على مصالح وأهواء الأفراد والجماعات، والطبقات والطوائف والجنسيات.

لقد جاءت شرائع الله تُقيم الحق، وتُجري العدل بين الناس على أساسٍ راسخ متين من العقيدة التي تضرب جذورها في الأعماق. وجاءت شريعة الإسلام تُوافق ظروف الناس المكانية والزمانية، ومطالبهم في تلك الظروف.

\*\*\*

(١) الإخلاص: ٤.

مقتضى إنزال الكتاب بالحق:

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرْنَاكَ اللَّهُ ﴾<sup>(١)</sup>

إنَّ إنزال الكتاب بالحق فيه إلزامٌ بالحكم به، وعدم مجاوزته أو الخيطة عنه ﴿ فَأَحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ ﴾<sup>(٢)</sup>

فمقتضى نزوله بالحق أن يُتبع، وأن يحذر الفتنة عن شيء منه؛ فإن ذلك مُفضٍ إلى الفسوق والفساد.

﴿ وَإِنْ أَحْكَمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَأَحْذَرَهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّنَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴿٤٨﴾ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ

(١) النساء: من الآية ١٠٥.

(٢) المائدة: من الآية ٤٨.

حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١٠٦﴾ (١)

كثيرٌ من الناس يُقوِّدُهُمْ هَواهُم إلى الخُروجِ عن حُكْمِ اللَّهِ؛ طَمَعًا في العاجلة، ورغبةً عن الآخرة، مع أنهم تاركون لما طَمِعُوا فيه، مُقبِلون إلى ما رَغِبُوا عنه، مُحاسِبون على الحق الذي خالفوه، مأخوذون بالباطل الذي أتبعوه !

وَمَنْ رَغِبَ عَنِ الْحَقِّ لَمْ تَسْلَمْ لَهُ مَنَافِعُهُ، وَلَنْ تَبْقَى لَهُ مَطَامِعُهُ.

﴿يَنْدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴿١٠٦﴾﴾ (٢)

قال ابنُ كثيرٍ عند تفسيره لهذه الآية: "هذه وصية من الله ﷻ لولاية الأمور أن يحكموا بين الناس بالحق المنزَّل من عند الله تبارك وتعالى، ولا يعدلوا عنه؛ فيضلوا عن سبيل الله. وقد توعدَّ الله تبارك وتعالى مَنْ ضلَّ عن سبيله، وتناسى يومَ الحساب بالوعد الأَكيد،

(١) المائدة: ٤٩، ٥٠.

(٢) ص: ٢٦.

والعذاب الشديد".

ذكر ابنُ أبي حاتم أنَّ إبراهيمَ أبا زُرعة حَدَّثَ أنَّ الوليدَ بنَ عبد الملك قال له:

أُيْحَاسِبُ الخليفةَ؛ فَإِنَّكَ قد قرأتَ الكتابَ الأولَ، وقرأتَ القرآنَ وفقهتَ؟

فقلتُ: يا أمير المؤمنين أقول؟

قال: قُلْ في أمانِ اللَّهِ.

قلتُ: يا أمير المؤمنين، أنتَ أكرمَ على اللَّهِ أم داودُ عليه السلام؟! إنَّ اللَّهَ جَمَعَ لَهُ النبوةَ والخِلافةَ، ثُمَّ تَوَعَّدَهُ فقال: ﴿يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ... الآية﴾

والمراد بـ (الحق) في قوله: ﴿فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ﴾ أي: بالعدل، وهو الحكم بما أنزل الله. ولا بُدَّ فيه من تجرُّد الإنسان لربِّه، ومخالفته للهوى المُضَيِّ إلى الضلال.

ولليوم الآخر شأن - أي شأن - في استقامة النفس  
وخضوعها للحق، وإيثارها ما يبقى على ما يفنى. ونسيانه والغفلة  
عنه وترك العمل له يُبعد عن الحق، ويوقع في الضلال.

إن مصالح الناس لا تستقيم إلا بالعدل، وروابطهم لا تُحسن إلا  
بإقامة الحق. ولقد اقتضت حكمة الله ألا يعيش الإنسان وحده، بل خلَقَ  
الناس شعوباً وقبائل، وجعل مصالحهم متداخلة، وحاجة بعضهم إلى  
بعض مُتصلة؛ لِيَتَّعَاوَنَ بَيْنَهُمْ بِصُورَةٍ فِطْرِيَّةٍ لَا تَكْلُفَ فِيهَا وَلَا حَرَجَ.

وجعل مصالح الجميع مع الجميع، لا مع واحدٍ منهم، وقد  
تنوعت مواهبهم، وتقسّمت أرزاقهم في تفاوتٍ يُحقق المصلحة.

﴿ أَهْمٌ يَقْسُمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۗ لَخُنُوفٌ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي  
الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۗ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ  
بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ ﴾ (١)

فلا بُدَّ من الحكم بالعدل؛ لمصلحتهم جميعاً؛ درءاً للمفاسد،  
ودفعاً للظلم، وتحقيقاً للتعارف فيما بينهم.

(١) الزخرف: من الآية ٣٢.

ويأتي الجزء في الآخرة - وهو واقع لا محالة - ليكون حاثاً على التمسك بالحق، والقيام بالقسط، ويكون السعي للآخرة باراً بدنياً للناس، مطهراً لحياتهم من الظلم والجور. فتكون بسعيها في الدنيا صونا للإنسان من العبث والباطل. ويكون القيام بالحق فيها عملاً من أعمال الآخرة تطيب به الدنيا، وتُنال به العقي في الآخرة.

### ﴿ فَأَحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ ﴾

إن الحكم بالحق ليس نافلاً يُخَيَّرُ الإنسان بين فعلها وتركها، بل هو فريضة محكمة لا يعذر تاركها، ولا يسلم من ريبه أو جحود.

﴿ أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمْ أَرْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحْيِفَ اللَّهُ

عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ ۗ بَلْ أَوْلَتْكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٥٠﴾ (١)

ولم أر شيئاً يهذبُ سلوك الإنسان، ويُطهِّرُ سعيه مثل ما يفعل صدق اليقين بالحساب والجزاء بين يدي الله، وهو أرشد الطرق وأقربها لتحقيق أمنٍ وسلامٍ بين الناس.

وعلى الباحثين عن أمنِ الإنسانية وسلامتها أن يدركوا ما لهذه العقيدة من تأثيرٍ في سلوك الإنسان.

إنها السبيلُ الوحيد لتحقيق أمنٍ صادق، وسلامٍ بارٍ. وهي تُحقِّقُ الأمنَ بلا تكاليف، وتُقيمُ السلامَ بلا انحرافٍ أو ادِّعاء.

إنها تُرشدُ الإنسانَ - وهو يؤمنُ برَّه - أن يكفَّ شرَّه عن غيره، في سرِّه وعَلَّنه. بل تنفُذُ إلى ما يُكُنُّه في صدره، فتُبدِئُ نيةَ السوءِ - إن وُجدت - قبل أن تُولد.

وهذا ما لا تستطيعه وسائلُ البشر قاطبةً مهما عظمت.

إن الإنسان الذي يؤمنُ بالحساب والجزاء لا يحتاجُ إلى قوةٍ بشريةٍ تُرغمه على حُسن الاستقامة وطُهر السلوك.

ولا تَسَلُ عن التكاليف والثمن الغالي الذي تدفعه الإنسانية حين تتصوَّر أن أمنها قد يأتي عن غير هذا الطريق، طريق الإيمان بالله واليوم الآخر.

لا تَسَلْ عما تُنفقه كلُّ دولةٍ في شراء سلاحها أو تطويره؛ لحماية نفسها من أختها، أو قل: لحماية الإنسان من شرِّ نفسه أو أخيه الإنسان.

لا تَسَلْ عن ذلك؛ فَإِنَّ بَطُونَ الجِيعِ تُحَدِّثُكَ أَنَّ أَقْوَاتَهَا قَدْ  
اغْتَصَبَتْ؛ لَتُحَشِّرَ فِي بَطُونَ المَدَافِعِ ! أَوْ تُسَاقُ إِلَى مُخَبَّاتِ التَّجَارِبِ،  
أَوْ تُعْطَى لِمَوْقِدِي نَارِ الفِتْنَةِ وَسِمَاسِرَةِ الحُرُوبِ !!

وتلك شهادة الواقع، واقع حياة الإنسانية كُلِّها حين نَسِيت  
صَلَتَهَا بِخَالِقِهَا، وَرَكَنْتَ إِلَى هَوَاهَا وَشَهْوَاتِهَا.

تكاليف باهظة، ودمارٌ وخراب، ودماءٌ وأشلاء، وَبَغْيٌ وَتَسْلُطٌ  
يشيع في الأرض، سعارٌ على أقوى الأسلحة وأشدها فَتْكَأً، وَتَنَافُسٌ  
على الغلبة والتكاثر، ومباهاةٌ بِقَتْلِ الإنسان وإذلاله. . . وَتَوَجُّسٌ  
وخوفٌ من اليوم والغد. . . وَتَهْدِيدٌ بدمار شامل ينشرُ على الناس  
صباحَ مساء ! حتى غَدَّت الغابةُ - غابةُ الوحوش الضارية - أَفْضَلَ  
من حياة الإنسان مع أخيه الإنسان؛ لِأَنَّ القَتْلَ الجماعي فيها لا يقع،  
والتهديد بالدمار الشامل - دمار الغابة كُلِّها - من سكانها لا يتم،  
وَكُلُّ مَا يَقَعُ مِنْ وَحْشٍ ضَارٍ أَنْ يَمْلَأَ بَطْنَهُ مِنْ فَرِيستِهِ وَلَا يَزِيدُ.

أما الإنسان فلا تَسَلْ عنه حين يطغى ويستبد، ويعيش لُدُنِيَّاهِ  
وينسى أخراه. لا تَسَلْ عَمَّا يَقَعُ مِنْ خَرَابٍ وَدَمَارٍ مِنْ كُلِّ مَتَكَبِّرٍ لَا  
يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الحِسَابِ.

إن العقيدة في القرآن الكريم ليست بمعزلٍ عن واقع حياة الإنسان، ولا بعيدةٍ عن شأن من شأنه.

إنَّ القرآن يُرِينَا قَدْرَهَا وَأَثَرَهَا فِي حَيَاةِ النَّاسِ، فِي مَاضٍ وَحَاضِرٍ وَمُسْتَقْبَلٍ، فِي دُنْيَا وَأُخْرَى.

يُرِينَا ذَلِكَ فِي قِصَصِ الْقُرْآنِ وَحَدِيثِهِ عَنِ الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ؛ لِنَعْرِفَ مِنْهُ سُنَنَ اللَّهِ فَيَمُنَ آمِنًا وَلَمْ يُصِرْ عَلَى بَاطِلٍ، وَفَيَمُنَ أَصْرًا عَلَى جُحُودٍ وَكُفْرٍ، وَلَمْ يَسْتَبْصِرْ وَيَعْتَبِرْ.

وَالْقِصَصُ الْقُرْآنِيُّ كُلُّهُ لِإِبْرَازِ حَقِيقَةِ الْعَقِيدَةِ وَأَثَرِهَا فِي حَيَاةِ الْإِنْسَانِ، تَصَدِيقًا وَإِيمَانًا، أَوْ كُفْرًا وَجُحُودًا.

وَكُلُّ ذَلِكَ مِنْ أَجْلِ الْعَقِيدَةِ وَصِيَانَتِهَا مِنَ الْإِلْحَادِ فِي آيَاتِهَا أَوْ بَيَانِ حَقِيقَتِهَا. وَلَا عُذْرَ بَعْدَ بَيَانٍ، وَلَا حُجَّةَ بَعْدَ إِعْذَارٍ وَإِنْدَارٍ..

وَأَيُّ إِعْذَارٍ وَإِنْدَارٍ أَقْوَى مِمَّا يَحْذَرُ مِنْهُ فِي وَاقِعٍ!؟

لَقَدْ حَذَّرَ اللَّهُ تَعَالَى مِنَ الشَّرْكِ، وَبَيَّنَّ أَنَّهُ مَدْمَرٌ لِأَهْلِهِ، وَمَنْ أَصْرَّ عَلَيْهِ أُخِذَ بِهِ وَلَمْ يُعْفَرَ لَهُ إِذَا مَاتَ عَلَيْهِ.

وَالْقِصَصُ إِذْ يَرِينَا النَّتَائِجَ يَبْصُرُنَا بِهَا ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ

عَنْ بَيْنَةَ وَيَحْيَىٰ مَنِ حَىٰ عَنْ بَيْنَةَ ﴿<sup>(١)</sup>

وفي كل ذلك نرى كل نبي يُخاطبُ قومه بالعقيدة.

﴿ يَفْقَوْمَ عَبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنَ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ <sup>(٢)</sup>

ويجعل الأعمال مرتبطة بما سلباً وإيجاباً، إيماناً وكُفراً. فلا يقبل الله عملاً - ولو كان صالحاً - إلا بالإخلاص لها، والوفاء بحقها.

وذلك هو الشأن في إنزال القرآن:

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ

الدين ﴿<sup>(٣)</sup> أَلَّا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ﴾ <sup>(٤)</sup>

﴿ وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِن أَشْرَكْتَ

لِيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ <sup>(٤)</sup>

(١) الأنفال: من الآية ٤٢.

(٢) الأعراف: من الآية ٥٩.

(٣) الزمر: ٢، ٣.

(٤) الزمر: ٦٥.

وكم من أمثلة تُضرب وقصص يُتلى؛ من أجل نجاة الإنسان وفوزه بخس العاقبة والمصير.

ولا نجاة ولا فوز إلا بمعرفة حق الله، وصدق الوفاء له، والخشية منه.

ولا حضارة تُقام وتُحفظ فيها حقوق الإنسان إذا ما اتَّخَذَ الناسُ من دون الله أنداداً، وكانوا لأهوائهم وشهواتهم، ولم يكونوا عباداً لخالقهم.

إن الله عَلِيمٌ ذَكِيٌّ يُريهم - في حديث القرآن - كيف تُدمر الحضارات، ويُساقُ الفناء إلى ما شِئِدَ فيها من بناء؛ بسبب ما اتَّخَذُوهُ من دون الله من آلهة، وما وقعوا من ذنوبٍ وآثامٍ ﴿ أَوْلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَانَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ آتِيٍّ ﴿١٦٠﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٦١﴾ (١)

لقد كان في قصصهم عبرة:

وفيما قصه الله تعالى من قصص، وما ضربه من أمثال عبرة لأولي الألباب، في كل زمان أو مكان.

وهو قصص واقِع، تُرى دلالتُه ووقائِعُه في كثيرٍ من حياة الإنسان.

﴿ لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصَدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (١)

ويا له من مثلٍ بالغ الدلالة، فيه ما فيه من بطلان كل ما عُبد من دون الله، وخذلان كل من اتخذ من دون الله أنداداً ﴿ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ ضُرْبٌ مِّثْلُ مَا سَمِعُوا لَهُ ۗ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ ۗ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْعًا لَا يَسْتَنْفِذُوهُ مِنْهُ ۗ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴾ (٢)

(١) يوسف: ١١١.

(٢) الحج: ٧٣.

ضُرِبَ هذا المثل؛ لِيُسْمَعَ وَيُعْرَفَ ما في الشرك من بطلانٍ  
 وخُسرانٍ، كما ضُرِبَ مَثَلُ العنكبوت؛ لِيُعْرَفَ ما في الشرك من  
 خُذلانٍ وضياعٍ وهوانٍ ﴿مَثَلُ الَّذِينَ أَخَذُوا مِنَ دُونِ اللَّهِ  
 أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ  
 الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (١)

وفي المثلين - لبطلان الشرك وضياع أهله - بيان لما يرى في  
 حياة الناس في ماضٍ وحاضرٍ ومستقبل.

والله محيطٌ بكلِّ شيءٍ، عالمٌ بما كان، وما هو كائن، وما سيكون.  
 وهذا الدمار والبطلان للشرك وأهله يمتدُّ - مع الإصرار عليه  
 - إلى إحباط الأعمال، وسوءِ العاقبة والمصير في العاجلة والآخرة.

﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخَطَفَهُ الطَّيْرُ  
 أَوْ تَهْوَى بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ (٢)

(١) العنكبوت: ٤١.

(٢) الحج: من الآية ٣١.

وكفانا أن نرى - في هذا المقام - ما ضربه الله مثلاً رجلين، جعل الله لأحدهما جنتين، والقرآن الكريم يصفهما وصفاً تراه أمامك، وتكاد ترى نفسك بين الرجلين وهما يتحاوران.. تشاهد ما يشاهدان، وتحاور فيما يُحاوران، وتعرف من نفسك - وأنت تسمع، بل تشاهد حوارهما - أينَ تحب أن تكون؟ وأنت ترى النتائج والعواقب قبل أن تبارح ما تشاهد من حوارٍ بَطْرِ صِلَفٍ مغرورٍ من جانب المشرك، وحوارٍ بارٍ صادقٍ معتدلٍ من جانب المؤمن.

ويدور الحوار حتى تشهد بعينيك دماراً شاملاً، وهلاكاً مسيطراً، وترى المشرك على حالٍ غير ما كان عليه وهو مُسْتَدْرَجٌ بالنعمة التي جُعِلت له.

نقرأ ذلك في سورة الكهف، ونشاهد المقدمات كما نشاهد النتائج.

والقرآن يُتلى على الناس إلى أن يرث الله الأرضَ ومن عليها؛ ليكون للعالمين نذيراً. ﴿ وَأَضْرَبَ لَهُم مَّثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهَا بِتَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زُرْعًا ﴿٦٨﴾ كَلْنَا الْجَنَّتَيْنِ إِذِ انْتَبَهَا وَكَلَّمْنَا مِنْهُنَّ شَيْقًا ۖ وَفَجَّرْنَا خِلْفَهُمَا نَهْرًا ﴿٦٩﴾

وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُخَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ  
 نَفَرًا ﴿٦٨﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ  
 أَبَدًا ﴿٦٩﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا  
 مُنْقَلَبًا ﴿٧٠﴾ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُخَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ  
 تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّكَ رَجُلًا ﴿٧١﴾ لَنِكْفَا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي  
 أَحَدًا ﴿٧٢﴾ ﴿١﴾

هكذا دارَ الحوار بين الرجلين. وعُرفَ ما عند أحدهما من  
 إيمانٍ و يقينٍ، وما عند الآخر من إصرارٍ على إنكارٍ وجحود.  
 ولم يتوقف صاحبُ اليقين والإيمان عن تبصرةٍ وتحذيرٍ وإنذارٍ،  
 حيث قال لصاحبه:

﴿ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ۗ  
 إِنَّ تَرَنٍ أَنَا أَقَلُّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴾ ﴿٦٨﴾ فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّنْ  
 جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٦٩﴾

(١) الكهف: ٣٢ - ٣٨.

أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا ﴿١١﴾ (١)

و لم يَكِدْ الرجلُ يفرغ من عِظَتِهِ لصاحبه وتبصرته وإنذاره، حتى رأينا النتائج والعواقب ماثلة تُبْصَرُ وتُشَاهَدُ، وتُعْطَى دلالتها وعبرتها للناس إلى قيام الساعة.

﴿ وَأَحِيطَ بِشَمْرِهِ، فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا بَنِيَّ لَمَّا أَشْرِكْتُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿١٢﴾ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿١٣﴾ هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿١٤﴾ ﴾ (٢)

﴿ وَأَحِيطَ بِشَمْرِهِ ﴾ عندئذ رأينا الرجل - وهو يشهد موطن غروره واعتزازه - خاويًا كحجته، متجردًا من كل أسلحته، فلا هو أكثر مالاً، ولا هو أعز نفراً، وما كان له من فئة ينصرونه من دون الله، وما كان مُنتَصِرًا.

(١) الكهف: ٣٩ - ٤١.

(٢) الكهف: ٤٢ - ٤٤.

وقد كان يفاخرُ صاحبه، ويقول: ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفْرًا﴾، ويقول عن حنته: ﴿مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا﴾ ﴿٤٠﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُودْتُ إِلَىٰ رَبِّي لِأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا ﴿٤١﴾

اعتدَادُ بَدُنِيَاهُ أَدْخَلَهُ فِي الْإِصْرَارِ عَلَى الْكُفْرِ وَالْجُحُودِ وَالْغُرُورِ، جُحُودُ الْعَوْدِ إِلَى اللَّهِ وَالِاسْتِخْفَافِ بِهِ، وَالْغُرُورُ بِأَنَّهُ أَهْلٌ لِأَن يَجِدَ خَيْرًا إِنَّهُ هُوَ عَادَ - فِي ظَنِّهِ - وَرُدَّ إِلَى رَبِّهِ.

وَكَمَ فِي حَيَاةِ النَّاسِ مِنْ مَفْتُونٍ بِالحَيَاةِ الدُّنْيَا، مُسْتَدْرَجٍ فِيهَا، مُرْتَكِبِينَ إِلَيْهَا، غَافِلِينَ عَنِ الآخِرَةِ، مَنْشَعَلِينَ عَنْهَا !  
وَشَتَانٌ - فِي حَيَاةِ النَّاسِ وَرَوَابِطِهِمْ - مَا بَيْنَ إِيمَانٍ يُخْضَعُ عِطَاءَ اللَّهِ لِلتَّقِيمِ وَالْفَضَائِلِ، وَشِرْكٍَ يُخْضَعُ لِبَغْيٍ وَإِفْسَادٍ وَتَسْلُطٍ.

شَتَانٌ مَا بَيْنَ مُؤْمِنٍ يَقُولُ: ﴿هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ <sup>(١)</sup> وَظَالِمٍ لِنَفْسِهِ، يَقُولُ فِي غُرُورٍ أَيْلَهُ: ﴿إِنَّمَا أَوْتَيْتَهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ <sup>(٢)</sup>

(١) النمل: من الآية ٤٠.

(٢) القصص: من الآية ٧٨.

الأول: يعترفُ بفضلِ الله، فيشكره في البرِّ بِخُلُقِهِ.

والثاني: ينكرُ فضلَ ربِّه، ويسند الفضلَ لنفسه، فيبغى الفسادَ

في الأرض.

مِنَ ذَلِكَ نَعْلَمُ - عِلْمَ الْيَقِينِ - أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ فِي الْحَيَاةِ أَسَاسُهُ  
الِإِعْتِقَادُ، وَعَلَى الْعَقِيدَةِ وَحْدَهَا يَقُومُ السُّلُوكُ؛ فَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ  
الْآخِرِ آتَرَ رِضَى رَبِّهِ، وَأَخْضَعَ كُلَّ شَيْءٍ لَطَاعَتِهِ، وَمَنْ أَشْرَكَ بِهِ فَقَدْ  
ظَلَمَ نَفْسَهُ، وَعَرَّضَهَا لِحُسْبَانٍ مِنَ السَّمَاءِ يُحِطُّمُ أَمَالَهَا، وَيُدْمِرُ  
ثَمَارَهَا، وَلَا شَيْءَ فِي النِّهَايَةِ إِلَّا الْحُسْرَةُ وَالنَّدَامَةُ، وَالْقَوْلُ - بَعْدَ فَوَاتِ  
الْأَوَانِ -: ﴿ يَلِيَّتَنِي لَمْ أَشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴾.

إِنَّ مَا تَعَلَّقْتُ بِهِ النُّفُوسُ مِنْ دُونِ اللَّهِ ضَائِعٌ.. إِنَّهُ سَرَابٌ  
خَادِعٌ ﴿ تَحْسَبُهُ الظُّلُمَاتُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ  
اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّيْتُهُ حِسَابَهُ ۗ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ (١)

أَمِنْ أَجْلِ الدُّنْيَا يَفْقِدُ الْإِنْسَانُ الْوَفَاءَ لِخَالِقِهِ ؟

(١) النور: من الآية ٣٩.

أَيُّ شَيْءٍ هِيَ ؟

وهل تستحقُّ أن يُخضعَ الإنسانُ قلبه لزهركما وزينتها، وينسى  
حقيقتها وعاقبتها ؟

ذلك مثلها، وتلك نهايتها:

﴿ وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ  
فَأَخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ ۗ وَكَانَ اللَّهُ  
عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ (١)

وإذا كنتَ قد رأينا دمارَ الشركِ في مَثَلٍ أو أمثالٍ ضربها الله في  
القرآن؛ لثَرِ عاقبةِ الإيمانِ في أمثالٍ وأمثالٍ جعلت للمؤمنين قدوةً في  
كُلِّ زمانٍ ومكانٍ.

والقرآن الكريم يُرينا ذلك في كثيرٍ من أحداثٍ وأحوالٍ:

\* نَرَى عاقبةَ التُّقى والإيمانِ في يوسفَ عليه السلام وما جرى معه،  
وما انتهى إليه، في سورةٍ كاملةٍ سُمِّيَتْ باسمه (يوسف) نشاهدُ فيها

المقدمات والتناجح، ونرى العواقب لِمَنْ أَحْسَنَ وَمَنْ أَسَاءَ؛ لنعرف للإيمان قَدْرَهُ، وللإحسان منزلته، ويكون شعارنا مع أنفسنا ﴿ إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (١)، ودعاؤنا لعاقبتنا ما دعا به يوسف عليه السلام: ﴿ أَنْتَ وَلِيٌّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۗ تُوَفِّيهِ مُسْلِمًا وَالْحَقِّنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ (٢)

\* ونرى ما نراه من أثر حقيقة الإيمان في يعقوب عليه السلام وهو يفقد - من البلاء - بصره، ولا يفقد في الله رجاءه وأمله.. وهو الذي يقول لِنَبِيِّهِ: ﴿ يَبْنَئِ أَدْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُونُسَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْيَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْيَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾ (٣)

\* ونرى ما نراه من ثقة في وعد الله، وفرار إليه دون سواه، فيما كان من أم موسى عليها السلام وهي تعرف أن وليدها سيناله الذبح كما نال

(١) يوسف: من الآية ٩٠.

(٢) يوسف: من الآية ١٠١.

(٣) يوسف: ٨٧.

غيره - وقد وُلِدَ في عامٍ لم يسلم فيه مولودٌ - فماذا يكون ؟

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفَتْ عَلَيْهِ  
فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي ۗ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ  
مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (١)

مَنْ الذي يملك أن يُحَقِّقَ ذلك مهما كان معه من أسباب ؟

مَنْ يملك ذلك غير الله ؟

وَمَنْ تلك التي تسمح لنفسها أن تُلقِي وليدها في اليمِّ إذا

خافت عليه ؟!

وإلى أين يذهبُ به اليمُّ ؟

وما وسائلُ الملقِي في اليمِّ في سلامةٍ أو نجاةٍ ؟

وماذا يكونُ الحالُ إن وَقَعَ في أيدي مَنْ يكيدون ويذبحون ؟

وهوَ إن نَجَا من غَرَقٍ في الماءِ، فما السبيلُ لخلاصه من أيدي

تلتقطه وتأخذه ؟

(١) القصص: ٧.

ويكفي أن تُقرأ الآيات من بعد؛ ليعرف كيف يتحقق الوعد، وعد الله الذي لا يخلف وعده ﴿قَالَتْقَطَّهٗ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَمَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خٰطِئِينَ﴾ (١)

بالله، هو الآن في أيدي من يكيدون ويذبحون؛ ليعلم أنه من حفظه الله لا يمكن أن يضيع، وأن المكر السيئ لا يحيق إلا بأهله. وذاك ما تمليه العقيدة، ويفرضه الإيمان.

وهذا ما كان ﴿وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنِي لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (٢)

نجا الرضيع من ذبح، كما نجا من غرق بفضل من الله تعالى وحده دون سواد.

فماذا عن حال أم موسى وقد وعدت أن يعود إليها في وحي

(١) القصص: ٨.

(٢) القصص: ٩.

وَوَعَدَ مِنْ اللَّهِ !؟

﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أَمْرٍ مُوسَىٰ فَرِحًا ۖ إِنَّ كَادَتْ لِتُبَدِيَ بِهِ لَوْلَا  
 أَنْ رُبَّنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتَيْهِ  
 قُصِيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ  
 الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ  
 وَهُمْ لَهُ نَصِیحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَىٰ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ  
 وَلَتَعْلَمَنَّ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ۗ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ (١)

تحقق وَعَدَ اللهُ، وعاد الرضيع إلى أمه مُعَزَّزاً مُكْرَماً، تُرَضِعُهُ  
 وتأخذُ أجراً !

\* ونرى ما نراه من عِزَّةٍ وثباتٍ وإِثَارٍ لِمَا يَبْقَى؛ ثِقَّةً فِي وَعْدِ  
 اللَّهِ، وعبادة له دون سواه.

نرى ذلك في امرأة فرعون الذي يقول في بَطْرِ وَزَهْوٍ، وهو  
 ينادي في قومه:

﴿ يَنْقُومِ الْيَسَّىٰ لِي مُلْكٍ مُّصْرًا وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي

﴿ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ (١)

فلا ترى في ذلك كله، وفيما يقع منه إلا ضياعاً ومتاعاً، وعتواً وفساداً.

وتأوي إلى الله تشدُّ رحمته، وتطلب رضاه مؤمنة صادقة، صابرةً محتسبةً، ترى الله ولا ترى أحداً سواه، مع ما توافر لها من دُنيا يسيلُ لها لعابُ الغافلين، ويركن لشيءٍ منها من يركنُ من اللاهين الغافلين.

ولذلك ضربها الله مثلاً للمؤمنين ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَخِجْتِي مِنَ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِيهِ وَخِجْتِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ (٢)

فَنَحَتْ بِفَضْلِ رَبِّهَا مِنْ كَيْدِ فِرْعَوْنَ. وَصَعَدَتْ - بِإِيمَانِهَا - إِلَى مَكَانَةٍ لَمْ يَصْعَدْ إِلَيْهَا إِلَّا قَلِيلٌ مِنْ نِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ.

(١) الزخرف: من الآية ٥١.

(٢) التحريم: ١١.

وقد ثبت في الصحيحين، عن أبي موسى الأشعري عن النبي ﷺ قال: « كَمَلَ (١) مِنَ الرَّجَالِ كَثِيرٌ، وَلَمْ يَكْمَلْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا: أَسِيَةُ امْرَأَةِ فِرْعَوْنَ، وَمَرِيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ، وَإِنَّ فَضْلَ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ (٢) » (٣)

ومن عجائب الإيمان أن ترى أثره في رجالٍ ونساء، وكبارٍ وصغار، وحكامٍ ومحكومين، وفقراء وأغنياء.

تراه نوراً و يقيناً و صبراً و احتساباً، ورضى عن الله في كلِّ حالٍ.  
ولا تغيبُ عنك دلالته، ولا تختلط صيغته.

(١) الكمال: يطلق على تمام الشيء وتناهيه في بابهِ، والمراد به هنا: التناهي في جميع الفضائل، وخصال البرِّ والنقوى  
(٢) قال العلماء: معناه أن الثريد من كلِّ الطعام أفضل من المرق، فثريد اللحم أفضل من مرقه بلا ثريد، وثرید ما لا لحم فيه أفضل من مرقه. والمراد بالفضيلة نفعه، والشبع منه، وسهولة مساعه، والالتذاد به، وتيسر تناوله، وتمكّن الإنسان من أخذ كفايته منه بسرعة، وغير ذلك، فهو أفضل من المرق كله، ومن سائر الأطعمة. وفضل عائشة على النساء زائد كزيادة فضل الثريد على غيره من الأطعمة.

(٣) البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: و ضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون، رقم ٣١٥٩.

إنه الإيمان، وإها العقيدة.. بها يكون الأمن، ولا يكون غيرها  
أمنٌ ولا سلام.

﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا ءِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُمْ  
مُهْتَدُونَ ﴾ (١)

ذلك أن الذي يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه لا يكف عن  
الشتر فحسب، بل يسارع إلى الخير - في وجلٍ - ألا يقبل عمله.

﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا ءَاتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴾  
أُولَٰئِكَ يُسْرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَاتِ وَهُمْ هَٰذَا سَابِقُونَ ﴾ (٢)

وحين تنتصر العقيدة في النفوس يتحقق الأمن في حياة الناس.  
وذاك ما بشر به الرسول ﷺ حين يكون ذلك وينتصر الإيمان، حيث  
قال: « وَاللَّهِ لَيُتِمَّنَّ هَٰذَا ٱلْأَمْرَ (٣) حَتَّىٰ يَسِيرَ ٱلرَّكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَىٰ  
حَضْرَمَوْتِ (٤) لَا يَخَافُ إِلَّا ٱللَّهَ أَوْ ٱلذُّبَّ عَلَىٰ غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ

(١) الأنعام: ٨٢.

(٢) المؤمنون: ٦٠، ٦١.

(٣) أي أمر الدين.

(٤) صنعاء: بلد باليمن، وحضرموت: موضع بأقصى اليمن.

تَسْتَعْجِلُونَ» (١)

لأنَّ الناسَ عندئذٍ تحكّمهم عقيدَتُهُم، وتأسرهم بفضائلها وأخلاقها، فلا يقع منهم الغدر، ولا تضيع الأمانة في سرٍّ أو علن.

وهم يوقنون أنَّ ما يغيب عن أعين الناس لا يخفى على علمِ الله، وأنَّ مرجعهم جميعاً إلى الله، فينبئهم بما عملوا.

﴿يَوْمَ يَدْعُ يَوْمَئِذٍ بِاللهِ دِينَهُمُ الْحَقُّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ

الْمُبِينُ ﴿٢٥﴾﴾ (٢)

﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللهُ

وَدَسَّوهُ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٢٦﴾﴾ (٣)

وبعد، مرّة أخرى. فإنَّ العقيدة في القرآن الكريم يرتبط بها كلُّ شأن من شؤون الإنسان، بحيث تكون هي الأصل في نبيته وقوله وعمله ومعاملته، وأيُّ شأن من شؤونه.

(١) البخاري: كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، رقم ٣٣٤٣.

(٢) النور: ٢٥.

(٣) المجادلة: ٦.

بما يُرْفَعُ الْكَلِمَ، وَيُقْبَلُ الْعَمَلُ، وَتُنْصَبُ الْمَوَازِينُ، وَلَا تُثْقَلُ إِلَّا  
بِهَا، وَلَا تُخَفُّ إِلَّا بِفُقْدَانِهَا.

عليها يتوقف الأمن والسلام في دُنْيَا النَّاسِ، وَيَكُونُ الْفَوْزُ  
وَتَكُونُ النِّجَاحُ مِنَ الْعَاقِبَةِ وَالْمَصِيرُ.

﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ  
حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (١)

وَأَخِرُ دَعْوَانَا أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

محمد الراوي..

\* \* \*